« محمـــــد »

للأســـتاذ على الطنطاوى

منذ أربعة عشر قرناً ونيف ولد محمد ، فلم يكد يفطن الى ولادته إلا قليل ، وبعد أربعة عشر قرناً ونيف استضاءت فيها الدنيا بنور محمد ، واهتدت الانسانية بهدى محمد — مرت بالدنيا ذكرى مولد محمد ، فلم يكد يفطن اليها إلا قليل !

بل لم يعرف بعدُ انسان من هو محمد !

* * *

على ان العظماء فى التاريخ كثيرون ، وقد عرفهم التاريخ ، ولكنه لم يعرف محمداً ، لأنه ليس فيهم مثل محمد !

عظمة أولئك انهم سبقوا أوانهم ، فعظموا لسبقهم ، ثم جاء أوانهم فساواهم أبناؤه جميعاً ، ثم جاء أوان بعده ففاقهم أهله جميعاً ، ولم يبق لهم إلا عظمة الذكرى

وان التلميذ اليوم يعرف من الطبيعة أكثر مما كان يعرف جاليليو ، والضابط يعلم من فنون الحرب أكثر مما كان يعلم اينبال وطالب الفلسفة يدرك من حقائقها أكثر مما كان يدرك أفلاطون وكذلك سائر العظماء

أما محمد فطراز من البشر لا تحتمل الدنيا منه أكثر من واحد ، ولا يمتد عمرها حتى ترى مثل محمد ، فمحمد عظيم كل عصر ، وعظمته لا تبلى جدتها على الدهر .

* * *

وإن كثيراً من العظماء قد سنوا سنناً ، وشرعوا شرائع ، ولكنهم سنوها ناقصة فكملت ، وقاصرة على زمان واحد فعدلت ، ومحدودة بضيقة فوسعت ، وما زالت أبداً فى حاجة الى التكميل والتوسيع والتعديل . أما شريعة محمد فجاءت كاملة ، وعاشت كاملة ، وستخلد كاملة ، لأنها من عند الله الكامل ، لا من عند العقل الناقص .

وستموت الشرائع كلها ، والعاقبة لشريعة الله

إن روحية الشرق ستطحن مادية الغرب ، ومادية الغرب ستقتل روحية الشرق ، ولا يبقى إلا الأصلح ، والأصلح هو الاسلام

أى دين غير الاسلام يستطيع المرء أن يتمسك بأحكامه كلها ، ثم يكون امرأ صوفياً قوياً غنياً ؟

أى دين غير الاسلام يعرف للبدن حق البدن ، وللروح حق الروح ، ويعرف للدنيا حقها ، وللآخرة حقها ؟

أى دين غير الاسلام فيه الوحدانية فى الايمان ، والشورى فى الحكم ، والاخوة فى الحياة ، والجهاد فى المبدأ ، والقوة والاعتدال فى كل شىء ؟

أى دين غير الاسلام يحل المشكلة الاجتماعية الكبرى ، التى ولدت الشيوعية والفاشية والنازية ، وستلد الموت الأحمر ، والخراب الأكبر ؟

* * *

إن العظماء كثيرون ، ولكن العظيم عظيم فى ناحية ، صغير فى سائر النواحى ، فهو عظيم فى العلم ، أو فى الحرب ، أو فى الأدب ، أو فى السياسة . أما محمد فعظيم فى كل شىء .

وآثار العظماء فى البشر واضحة جلية ، ولكن لم يعمل أحد أجل ولا أجل مما عمل محمد .

نفخ فى هذه البادية الناحلة ، وهذه الأمة المتفرقة الجاهلة ، فأخرج منها أمة قوية عالة عاملة .. حملت مشكاة النور ، فى وقت عم فيه الظلام ، وبنورها اهتدى ويهتدى كل انسان ، فى كل مكان الى آخر الزمان ، ولولا محمد ما كانت أوربة ولا الأمير كتان !

* * *

كانت الدنيا فى نظر قريش مكة ، كما أن الدنيا فى نظر الفرنسيس باريس ، ولكن دنيا محمد أوسع ، ومحمد لا تسعه مكة ، فأم غار حراء ليشرف على الأفق الواسع ، ثم سما على معراج الى السماء ، فرأى الأرض كيراعة مضيئة ، فاستصغرها ، ولم يحفل بما عليها من ذرات هينة ..

هكذا عاش محمد ، وهكذا انتقل

عاش محمد فى الأرض وهو أكبر من الأرض ، وترك فى الأرض أثراً أكبر من الأرض ، ولم يعرفه فى الأرض أحد من أبناء الأرض — ذلك لأنه كان كما قال لامارتين :

« فوق البشر ، ودون الاله ، فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم »

على الطنطاوى